

مسؤولية الشاعر في ضوء علاقة الشعر بالعالم الخارجي The Poet Liability in Poetry's Connection with the outside World

د. خالد بلقاسم *

المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين ، الرباط/المغرب

belkacemkhalid@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2020/10/06 تاريخ القبول: 2020/10/09 تاريخ النشر: 2021/01/31

Abstract:

Delivering the connection of poetry with the external world from the media and political discourse stands as a procedural starting point entering into the ramifications of the first relationship, without involving the poet's responsibility. This responsibility opens an array of perceptions through the essence of poetry to be constantly permissible, and to the poetic variance when interacting with existential and metaphysical questions. Besides, it offers mechanisms of interactions, when dealing with these issues of language and about language as well. Thus, shaping the responsibility of the poet today, towards existentialism and the current world's contacts along with his disillusionments, requires a theoretical framework that does not separate this liability from the poet's work on language, which goes tightly together with the complex situation of meaning in poetry.

Keywords: Poetry, History, language, existentialism, hermeneutics

ملخص البحث:

تحرير علاقة الشعر بالعالم الخارجي من التماهي مع علاقة الخطاب الإعلامي والسياسي بالعالم الخارجي ليس إلا مُنطلقاً إجرائياً يُرِيّ للدخول إلى تشعُّبات العلاقة الأولى، من غير السقوط في حصر مسؤولية الشاعر. مسؤولية تظل مفتوحة على التعدد بتعدد التصورات التي تسمح بها ماهية الشعر المنفلتة باستمرار، ومفتوحة أيضاً على الاختلاف الشعري في التفاعل مع الأسئلة الوجودية والميتافيزيقية ومع القضايا التي يشهدها العالم، وعلى الاختلاف في آليات الاشتغال على هذه القضايا في اللغة وباللغة. وبذلك، فإن رسم مسؤولية الشاعر اليوم تُجاه الوجودي وتجاه تفاعلات العالم الراهن وخبائته يقتضي، في البدء، تسييجاً نظرياً لا يفصل هذه المسؤولية عن عمل الشاعر على اللغة، بما يقود إلى مُلامسة الوضع المُعقد للمعنى في الشعر.

الكلمات المفتاحية: الشعر، التاريخ، اللغة، الوجود، التأويل..

1. عودة سؤال مسؤولية الشاعر أو سؤال المهمة الشعرية

قد رُكِّلَ موضوع مفتوح على التأويل أن يعود باستمرار وأن يتلون بسياقاتٍ مقارباته. وفي كلِّ عود، يكون الموضوع إمّا مُهدّداً بالانغلاق، خصوصاً إذا اتخذ هذا العود مساراً دائرياً، وإمّا مُشرعاً على التجدد إن هو عاد أساساً مُبتعداً عن نفسه. الجهة المستعيدة والموقع النظري والفكري، الذي تعتمد هذه الجهة، هما المُحدّد للزمن المعرفي الذي به يُعاد إنتاج الموضوع وبه يتم بناؤه.

قد يعود الموضوع مُتنصلاً من كلِّ مسؤولية تجاه تاريخ المعرفة التي أضاعت عوداته في أزمنة مختلفة، فلا تكون المقاربة في هذه الحال سوى حجبٍ لما تراكم عن الموضوع من مكاسب معرفية، بما لا يتيح الانفصال عن هذا التراكم. فالانفصال البناء لا يستقيم إلا من داخل استيعاب هذه المكاسب وليس بجعلها، لأن ما يُحقّق هذا الانفصال معرفة تتم من داخل النسيان الفعال لا اعتماداً على تذکر جامد. وقد يعود الموضوع، في الحال المقابلة للأولى، إلى حقل التأويل بغاية فصله عن نفسه وعمّا تراكم بشأنه متى تهيأ شقٌّ مسلكٍ في سبُل بناء معناه، على نحو يُغذي نسب الموضوع إلى الاحتمال.

في ضوء تباين العود المستمر لأي موضوع مفتوح على التأويل، يُمكن التفكير في مسؤولية الشاعر اليوم انطلاقاً من الجرس على الاحتفاظ لهذا الموضوع بنسبه الإشكالي المتجدد. وذلك بتحصيله منهجياً من كلِّ مقاربة تستسهل تشعب علاقة الشعر بخارجها وتعقدها، ومن كلِّ كلام إعلامي غير معني بما هو معرفي. استناداً إلى هذا التحصين، يُمكن للتأويل أن يتساءل عن مسؤولية الشاعر اليوم، وعمّا هو مؤتمن عليه في مهمة شديدة التعقيد.

لابد من الناحية النظرية والمنهجية من فهم كلمة "اليوم"، في هذا التساؤل، من زاويتين؛ الأولى تخص الزمن الشعري الذي يجعل الشاعر مسؤولاً أمام المعرفة الشعرية وما تحقّق في مسارها التاريخي من مكاسب وإبدالات، وما تهيأ بها من تعميق لمسالك البحث عن المجهول. ففي هذه المعرفة تتكشف أسئلة الشكل الكتابي والبناء النصي والمعنى الشعري. وبها أساساً يتحدّد النسب إلى الشعر، بوصفه حصيلة أيادٍ عديدة في حفرها المُختلف عن اللانهائي، وهي أيضاً ما يصون الممارسة النصية من التقليد ومن الانتساب لغير زمنها الشعري. فالزمن الشعري مُختلف عن الزمن الكرونولوجي، بحيث يُمكن للشاعر اليوم أن يكتب، من خارج الزمن الشعري الذي بلغه الشعر، عن أشياء تحدث في زمنه، أي أن يكتب بوعي شعري تقليدي. أمّا الزاوية الثانية، فتربط بحيوية معرفة الشاعر ووعيه بالقضايا التي تطبع عصره وتتفاعل فيه، تلك التي تغدو فيها الأحداث مُجرّد وقائع وتجليات لما لا يرى وراءها¹، وهي الرؤية التي نصّ الشعراء ودارسو الشعر دوماً على أنّها ما يُميّز الشاعر، أي قدرته على التشويش على الرتيب في حواسه، نفاذاً إلى ما يحجبه الصوت العام.

ليست الزاويتان منفصلتين، بل إنهما من التداخل والتشابك المُتملصين من كلِّ حصر، إذ في المسافة الواصلة بين الزاويتين يتحدّد كلُّ عمل الشاعر، وفيها تتكشف تشعبات العلاقة بين الدّاخل النصي والخارج النصي، بين اللغة الشعرية والعالم. في هذه المسافة أيضاً تبدى الاختلافات والتباينات القائمة بين التجارب الشعرية. ذلك أنّ الشعر، بما هو عمل على اللغة، ليس واحداً. مجهوله قائم على تعدّد احتمالات تحقّقه.

ذلك أن التساؤل عن مسؤولية الشاعر، وفق الخلفية الإعلامية والسياسية، يجعله مُجهّزاً في مُنطلقه، بحُكم صُدوره من موقعٍ يتعيّن أن يكون موضوع تفكيكٍ لا مُنطلقاً تأمل. ليس التساؤل، إذاً، قادماً من هذه الخلفية، وليس أيضاً مجرد عبور بحمولتها الحاجبة نحو مسؤولية شديدة التعقيد، تنهض في عمقها البعيد ضدّ الإعلاميّ وضدّ الإيديولوجيّ. للتساؤل، في ضوء هذا الحذر المنهجي، أن ينطلق، في البدء، ممّا أرساه الشعاريون والمفكرون، وممّا لا تكفّ الممارسة النصية للشعراء عن إرسائه، وفاءً لتجديدها ولنسبها إلى اللانهائي.

أول مُنطلقات تحرير الموضوع ممّا يعوقه هو، إذاً، نقض التماهي السابق بين العلاقتين. فغالباً ما يُرادُ لعلاقة الشعر بالعالم الخارجي أن تكون مُتماهية مع علاقة المقال الصحفيّ أو المقال السياسيّ بالعالم الخارجي. تماهٍ يسهّل العمل على اللغة، إذ يقود إلى رؤية اختزالية إلى الشعر، تقوم على الاحتكام في تصوّره إلى خارجه، الذي لا يملك أيّ سمة شعريّة إلاّ إذا تحوّل إلى عملٍ على اللغة. فمفهوم الخارج النصّي يشهد قلباً في حمولته المعرفيّة داخل الشعر، ويكفّ عن أن يتحدّد من خارج العمل على اللغة.

لا حدّ لما يترتب على التماهي السابق من أعطاب معرفيّة. وهي تمسّ في العمق سؤال المعنى الشعريّ وتعمّد آليات إنتاجه. يُمكن الاقتراب من هذه الأعطاب، الناجمة عن طمس الاختلاف، اعتماداً على عنصريّين يكشفان خلل التماهي.

أول العنصريّين؛ تباين التواصل الإعلاميّ عن التواصل الشعريّ، إن جاز أصلاً الحديث عن التواصل في الشعر. تباينٌ راجعٌ إلى اختلاف المعنى فيهما؛ تصوّراً وبناءً. فالأول، أي التواصل الإعلاميّ، غير الثاني تماماً، بل إن الثاني يقوم أحياناً على نقض ما يبنيه الأول. إنّه يقوم على خلق الوشائج مع

الأسئلة، التي عليها تنطوي هذه المسافة، هي التي تجعل كلّ عودةٍ لموضوعٍ ما، وضمّنه موضوع مسؤولية الشاعر في الزمن الراهن، محور تأويلٍ في حرب المعنى التي أصبح الإعلام يُوجّهها ويتحكّم فيها. في هذه المسافة بين داخل الشعر وخارجه، تدور حرب التأويل. وفي هذه الحرب، يكون معنى هذه المسافة مُهدّداً بالحجب من موقعين؛ أولهما إنتاج هذا المعنى من خارج قضايا الشعريّة التي هي المؤهّلة للإنصات لخصائص اللغة الشعريّة. ثانيهما استحواذ الإعلام على المعنى واشتغال آتية الرّهبة في ترسيخ رؤية واحدة عن الموضوع، غالباً ما تنتهي بطمسه وتحويله إلى أقوالٍ جاهزة لا تنفك تتكرّر مع كلّ عودةٍ له، مُضاعفةً حجبهُ. لذلك تُصبح كلّ عودةٍ لهذا الموضوع، بل ولكلّ موضوع، فرصةً معرفيّة لانتزاعه من الجاهز ومن الجهة التي تحجبه، سعياً إلى إحداث الشقوق في الاستحواذ الإعلاميّ على المعنى. يُعدّ هذا الانتزاع المعرفيّ مسؤولية فكريّة. إنّه أساس ما تتطلبه حرب المعنى في الزمن الإعلاميّ الراهن، بل إنّ هذا الانتزاع ليس سوى استرجاع للموضوع من الجهة التي احتكرته، وتحرير للمعنى من حجاب الاستهلاك الإعلاميّ. ليس الخلل في المهمّة الإعلامية في ذاتها، بل في حرص الإعلاميّ على انتحال صفة المفكر والشاعريّ والناقد، أي في التطاول على تخصصات أُرست مكاسمها من داخل العلم لا من خارجه.

لعلّ ما يقتضيه، إذاً، تأويل العلاقة التي تتأسّس في المسافة بين الداخل النصّي والخارج النصّي في الممارسة الشعريّة هو الاحتفاظ لها بطابعها الإشكاليّ. وذلك بالانطلاق من تحريرها من الاستسهال الذي يُماهي بينها وبين العلاقة التي تربط الكلام السياسيّ والكلام الإعلاميّ بالعالم الخارجي. فالتفكيك في مسؤولية الشاعر لا يستقيم من داخل منظورهما.

الغامض، وإبدال الرؤية إلى ما يُعدُّ واضحاً من منظور الخطاب الإعلامي، وعلى مُساءلة البدهيات والأوهام التي يُرسِّخها هذا الخطاب، كما لا يروم التواصل الشعري إطلاقاً تحقيق الإفهام ولا يتحدّد مُتلقيه بحجاب الكم الذي عليه يتأسس مفهوم الجمهور، وغيرها من مظاهر التباين بين التواصلين. لذلك كلّما عمل الإعلام، وفق منظوره إلى اللغة، على مُقاربة الشعر، إلّا وانتهى إلى اختزاله، إذ يرسم لمسار تلقيه مسالك ضيقة لا تمس عمق اشتغال اللغة في الشعر. إنّه التوجّه العام الذي يتنامى راهناً بغاية حصر المعنى الشعري في دائرة الوقائع والأحداث، بنسيان تام لما رسّخته المعرفة الشعرية في جزئها على فصل الشعري عن الأحداث.

عندما يخضع عمل شعري للتداول بتوجيه إعلامي أو سياسي، فإنّ المعنى في هذا العمل يضيق وتُرسّم له الحدود وفق مُوجّهات هذا التداول. لذلك يتعيّن على كلّ تأويل الحذر من انتشار عمل شعري "خارج مدار التلقي الشعري الصّرف"². فغالباً ما يكون هذا الانتشار مُجرّد تأويل حاجب. ولنتذكّر في هذا السياق انزعاج راينر ماريا ريلكه من هذا النوع من الانتشار الذي كان عمله الشعري "أغنية عشق حامل الراية كرسنوف ريلكه ومصرعه" ضحيته بخضوعه لاستخدام حربي وسياسي³. وهو ما لم يتوقّف حتى بعد موت ريلكه. ولنتذكّر أيضاً صرخة الشاعر محمود درويش تجاه ما سمّاه بالخُبّ القاسي، الذي لم يكن، من وجهة نظرية التأويل، سوى قراءة مُغرّضة ترسم وجهة مُغلقة للعمل الشعري، تُريد له بذلك أن يتنكّر لهويته الشعرية وينهض بغير مهمته البعيدة.

المُقاربة الأولى مع موضوعاتها مُتباينة؛ تصوّراً ولغةً، مع العلاقة التي يبنها الشعرُ مع موضوعاته، من غير أن يعني ذلك تجريد الشعر من "بعده السياسي"، الذي لا يحتفظ لمفهوم "السياسي"، في الشعر، بحمولته المُتعارف عليها، بل يقلبها ويتوغّل بها وفق ما به يتحدّد الشعري بوجه خاص. مُقاربة الشعر لموضوعاته معرفيّة وجماليّة. بهما ينفصل الشعر عن المُقاربة السياسيّة⁴. ومن ثمّ، فالتفكير في مسؤوليّة الشعر اليوم يُمكن أن يتمّ بما يعوقه، أي بمُوجّهات سياسيّة أو برؤية قادمة من السياسة، بحيث لن يكون هذا التفكير إلّا حجباً للموضوع ونسياناً لما أُرْساه بعضُ الشاعريين والمفكرين والنقاد من إضاءات عنه⁵. ليس المنطلق في التساؤل عن مسؤوليّة الشاعر هو الموقع الذي تحتكم إليه السياسة، إلّا تمّ حجب الموضوع وحصره في دائرة مُغلقة تُلزم التفكير فيه بالاحتكام إلى قبلات تجعل النتائج مُضمرة، على نحو مُسبق، في المنطلق.

تحرير علاقة الشعر بالعالم الخارجي من التماهي مع علاقة الخطاب الإعلامي والسياسي بالعالم الخارجي ليس إلّا مُطلقاً إجرائياً يبيّن للدخول إلى تشعّبات العلاقة الأولى، من غير السقوط في حصر لمسؤوليّة الشاعر. مسؤوليّة تظلّ مفتوحة على التعدّد بتعدّد التصرّوات التي تسمح بها ماهية الشعر المنفلتة باستمرار، ومفتوحة أيضاً على الاختلاف الشعري في التفاعل مع الأسئلة الوجوديّة والميتافيزيقية ومع القضايا التي يشهدها العالم، وعلى الاختلاف في آليات الاشتغال على هذه القضايا في اللغة وباللغة. وبذلك، فإنّ رسم مسؤوليّة الشاعر اليوم تُجاه الوجودي وتجاه تفاعلات العالم الرّاهن وخبائته يقتضي، في البدء، تسييجاً نظرياً لا يفصل هذه المسؤوليّة عن عمل الشاعر على اللغة، بما يقود إلى مُلامسة الوضع المُعقّد للمعنى في الشعر، بحكم

عندما يخضع عمل شعري للتداول بتوجيه إعلامي أو سياسي، فإنّ المعنى في هذا العمل يضيق وتُرسّم له الحدود وفق مُوجّهات هذا التداول. لذلك يتعيّن على كلّ تأويل الحذر من انتشار عمل شعري "خارج مدار التلقي الشعري الصّرف"². فغالباً ما يكون هذا الانتشار مُجرّد تأويل حاجب. ولنتذكّر في هذا السياق انزعاج راينر ماريا ريلكه من هذا النوع من الانتشار الذي كان عمله الشعري "أغنية عشق حامل الراية كرسنوف ريلكه ومصرعه" ضحيته بخضوعه لاستخدام حربي وسياسي³. وهو ما لم يتوقّف حتى بعد موت ريلكه. ولنتذكّر أيضاً صرخة الشاعر محمود درويش تجاه ما سمّاه بالخُبّ القاسي، الذي لم يكن، من وجهة نظرية التأويل، سوى قراءة مُغرّضة ترسم وجهة مُغلقة للعمل الشعري، تُريد له بذلك أن يتنكّر لهويته الشعرية وينهض بغير مهمته البعيدة.

ثاني العنصرين، اختلاف المُقاربة السياسيّة عن السياسي في الشعر إن جاز الاحتفاظ في الحديث عن الشعر على مصطلح "السياسي". العلاقة التي تبنها

ما به يتميز المعنى الشعري. فإنتاج هذا المعنى يكشف تعقد العلاقة بين الداخل النصي والخارج النصي في الممارسة الشعرية، التي فيها تتحدد اللغة بوصفها مادة بناءً وموقعاً للتفكيك، بانفصالها كلية عن كلٍ منظور يختزلها في مجرد أداة.

2. تشعب المعنى الشعري

استشكال المسافة بين الشعر والعالم الخارجي في ضوء أسئلة المعنى لا يقوم على الفصل بين طرفي هذه المسافة، بل على صون الوشائج القوية والسرية بينهما، ولكن بالحفاظ لهذه الوشائج على أليائها المعقدة وعلى نسبها الشعري الذي يتحدد من داخل اشتغال اللغة. فاختزال هذه المسافة في علاقة وظيفية، بدعوى التشديد على ما يجمع طرفيها، لن يكون، في عمقه، سوى فصلٍ للشعر عن عالمه الخارجي وطمس الشعري فيه. المفارقة هي أن المدافعين عن البعد الوظيفي لهذه العلاقة هم، في الأساس، المكرسون لإلغائها باختزالها وفق منظور سطحي.

ليس المعنى في الشعر وظيفياً، بل إن وظيفة الشعر هي ألا يكون وظيفياً، وأن يظل محصناً ضد كل اختزال لمهمته التي لا ترتبط بقضايا زمنها إلا من داخل ما يميز المعنى الشعري، الذي ينبي حاملاً بذرة استمراره لا من القراءات المنجزة في زمن الشاعر لعمله، بل أساساً من القراءات القادمة من المستقبل البعيد. ومن ثم، لابد من استحضار نهوض المعنى الشعري، الذي يشترك في هذه الخصيصة - من غير تمامٍ طبعاً - مع الأعمال الأدبية والفنية، على قابلية الانتساب إلى قراءاتٍ محتملة دوماً، لأنه مُنفصلٌ من كل استنفاد. هذه القابلية هي ما يتملص من البعد الوظيفي وضيقة.

ليس المعنى الشعري مُعطى جاهزاً يتم العبور به إلى مختبر اللغة انطلاقاً من شكل كتابي جاهز ومكتمل، بل يتخلق في تفاعلٍ مع شكل لا ينفصل عنه. فالبناء الشعري؛ تركيباً وتخيلاً وإيقاعاً، هو ما يُولد احتمالات المعنى، إذ مصير المعنى الشعري أن يظل مفتوحاً على الاحتمال، لأنه يطالب دوماً بتجديد المعرفة والنفاذ إلى البعيد. هذه المطالبة هي أساساً مُضادة للمعنى الذي يبتغيه الإعلام ويرسخه. إن خلق المعنى الشعري عملٌ شاق، وهو ليس بالصورة التي يختزلها الإعلام في حديثه عن متابعة الشاعر لقضايا زمنه. فغالباً ما لا يستند هذا الحديث إلى منظور شعري، بل إلى خلفية تتملص منها تشعبات هذه المتابعة وما يعمل فيها من تحولات، وما تتطلبه من معرفة بالعلوم الإنسانية، ومن مقروء شاسع، وقوة إبداعية لا تتقيد بانتظارات الصوت العام. فهذه القوة تستجيب لتعقد الإنجاز الشعري ولحصّة الذات التي يُوقر لها الشعر حيناً هائلاً، باعتبارها موقعاً لتفكيك الجمعي، وترسيخ حرية الذات، وإرساء رؤيتها الخاصة إلى الأشياء، ضدّاً على "ثقافة" الإجماع.

المعنى الشعري يتخلق من العمل على اللغة. لا تكون فيه اللغة أداة بل مادة لتشكيل المعنى وتأمين انتسابه إلى اللانهائي، ليظل قابلاً للحياة خارج زمنه، بما ينطوي عليه من قدرة على الاستمرار في نداء التأويل. فالمعنى الشعري مُتوقّفٌ على تصوّر الشاعر للغة وعلى درجة التوغل الذي بلغه في العمل عليها والخلفية الفكرية الموجهة لهذا العمل. الشعر، يقول هيدغر: "يخلق أعماله في إطار اللغة، يخلقها من مادة اللغة"⁶. وبذلك يحتفظ اشتغال الشاعر على اللغة بالأثر الرئيس في تخلق المعنى الذي يحمل دمة الذات. في هذا الاشتغال المشدود إلى تصور الذات

الكاتبَة لِلّغة، تبدّي التباينات بين التجارب الشعريّة، بما هي تجارب مع اللغة بحمولتها الفكرية.

مفهوم هذه المادّة، التي عليها يقومُ الشعر ومعناه، مُنطلقُ الاختلافات التي تتكشفُ من آليات عمل الشاعر على اللغة. بهذا العمل المشدود إلى التصرُّو المُضمر فيه عن مادّته، تتباينُ التجاربُ الشعريّة. فالكفُّ عن عدِّ اللغة أداةً والتوجّه إليها بوصفها مادّةً كشف، في العديد من التجارب، أنّ هذه المادّة خزّانٌ فكريٌّ وأنّ العملَ عليها فكريٌّ، ولكن دون أن يتمّ ما هي عملُ الشاعر بعمل المُفكّر. فعملُ الأوّل يتمّ بخلفيّة جماليّة لا تنازلُ عن الإيقاع والخيال. بهذه الخلفيّة ينفصلُ الشاعرُ عن المُفكّر من داخل تماسّهما المكين. من هنا تتكشفُ صُعوبة الخلق الشعريّ وخطورته.

العملُ على اللغة ليس فعلاً شكليّاً بل هو إنجازٌ فكريّ، يقومُ على التفكير والمساءلة انطلاقاً ممّا يُتيحهُ الشّعْرُ عبْرَ خصوصيّة بنائه. العملُ على اللغة فعلٌ فكريّ يتطلّبُ معرفة بالشّعْر وبالعلوم الإنسانيّة، فيما يتطلّبُ، حسب آرثور رامبو، قلباً للحواسّ وتحريراً لها من الصوت العامّ. هذا التحرير شبيهٌ في الفكر بتوقيف الأحكام وتعليقها وبغزو العادة والتحرّر من المُسبّقات.

علاقة الشاعر بالعالم الخارجيّ هي أساساً عملاً باللغة على اللغة. به يكفُّ العالمُ الخارجيّ عن أن يكون مُجرّد مُعطى تمّ العبورُ به إلى داخل النصّ. فالشاعرُ لا يرهّنُ عمله بالأحداث، لأنّ كلّ ارتهانٍ إليها يجعلُ نصوصه تنتهي بانتهاء هذه الأحداث. الشاعرُ يرتهنُ إلى اللانهايّ وإلى ما لا يرى في كلّ ما يرى، وهو ما يُوجّه عمله ويُعقّده، ويُضاعفُ المشاق في مسؤوليته.

الشاعرُ هو مَنْ يُحوّلُ العالمَ الخارجيّ إلى عملٍ على اللغة. فالمعنى الشعريّ يتخلّق من داخل فعل

التحويل، بما هو فعلٌ شديد التعقيد. المعنى الشعريّ لا هو سابقٌ على النصّ ولا هو مُعطىٌ جاهزٌ يُعبّرُ به الشاعر إلى داخل النصّ. المعنى الشعريّ يتولّد من التحويل وبالتحويل الذي هو أساسُ الفعل الكتابيّ، بما يتطلّبُه هذا الفعلُ من رؤية تأويليّة، ومن حذفٍ ومحو وتشطّيبٍ ومُحاوَرَة لمعارفٍ ونصوصٍ وفنون. التحويل، في أساسه، عملٌ على مادّة اللغة باللغة. إنّه تجربة كتابيّة. تجربةٌ غيرُ مُنفصلة عن الحياة أو عن العالم. على العكس، إنّه نفاذ إلى العميق فيهما. بتشعّبات هذا التحويل وتعدّقاته، يكونُ الشاعرُ في قلب نُصوص أخرى، يُحاورُها فيما هو يُحاورُ موضوعه. لا يكتبُ الشاعرُ انطلاقاً من أحداث، بل انطلاقاً من نصوص أخرى أخضعها لرؤيته الذاتية. بهذه النصوص، يتفاعلُ مع الأسئلة الوجوديّة ومع قضايا زمنه وفق عمقٍ لا يتسع له الإيقاع الإعلاميّ والسياسيّ، ولا ينتسبُ إطلاقاً إلى خلفيّتهما. وهو ما يجعلُ الخلق الشعريّ قائماً على معرفةٍ مكينة ومُنتجاً لها في أن.

مشاق التحويل الشعريّ هو ما لا يستسيغه الكلامُ الإعلاميّ عندما يتهم، على نحو فجّ، المنذرين لهذا التحويل والمؤتمنين على الوديعَة الشعريّة، بالانفصال عن الحياة، وعندما يُشهرُ أيضاً في وجههم تُهمة الابتعاد عمّا يُسمّيه بالواقع. تُهمة أصبَحَتْ، بما تنطوي عليه من استسهالٍ، وسيلة مُقنّعة لاستعدادٍ العمق، إذ تُخفي انزعاجاً من طاقة العمل على اللغة في الكشف عن تنامي الحُجب الحامية للتسطيح.

بهذا العمل على اللغة، يتمّ النفاذ إلى البعيد في المعنى، على نحو يجعلُ مقاومة الشاعر، بما هي إحدى مسؤولياته، قائمة على خطورة اللغة. المقاومة، التي ينهضُ بها الشاعر، تتمّ باللغة وفيها، شرطٌ أن نفهم اللغة بحمولتها الفكرية وبعدها أخطر ما يملكه الإنسان، كما يرى هلدلين⁷.

التداخل الشديد بينهما؛ هما موضوع الهوية وموضوع البدهي.

لهذين الموضوعين في الشعر مستويان، الأول يمسّ المعنى الذي يبنيه الشعر وهو يفكك الموضوعين من موقعه، بطرقه المنتسبه إلى ما يميز بناءه، أي ما به يستحقّ وسَمّ الشعري. الثاني بعيد، يرتبط باشتغال اللغة، ولا سيما لدى الشعراء الذين يضمنون وعياً تفكيكياً في العمل على اللغة. في آليات هذا الاشتغال، يكون التركيب اللغوي الذي يبدعه الشاعر عملاً يطول قضايا لا تبدى مما عنه يتحدث الشاعر، بل من الأفق الذي يفتح له لغة وهو يتصدى، لا تصريحاً بل ممارسة وإنجازاً، لتصورات عنها وأنماط من التراكيب الجامدة. العلاقة بين هذين المستويين شديدة التداخل في الشعر. كما أنّ تحقيقاتها مختلفة باختلاف تصورات الذات الكاتبة وبما يتحصّل عن هذه التصورات من مُنجز شعري.

3. الشعر والهوية

بقدر ما حرص الفكر الحديث على إرساء تصوّر للهوية يغتذي من الاختلاف ويقوم عليه، بقدر ما ظلّ التعايش البشري يُولّد مظاهر هوية مُغلقة، رافضة لا لما كان يُعرف بالآخر وحسب، بل حتى لمكوناتها التي تبنى تعددها. هوية لم تعد تتسع حتى لتعددها الداخلي، مُتوغلة بالانغلاق إلى حدّ الأقصى. مظاهر هذا الانغلاق بأوهامه وعمائه وعنفه لا تنفك تنامي وفق حدة وإيقاع مُربكين لأدوات التحليل والتفكيك. وقد كان الشعر الحداثي دوماً، بخصوصية المعنى فيه، موقعاً لبناء رؤية مُنفتحة عن الهوية، بل إنّ هذا البناء كان أساساً من أسس حداثته. شأنه في ذلك شأن الفكر النقدي الحرّ، وشأن الفنّون في إرسائها للجَمال ومُلامستها لما يكشف عن ضيق القيود العرقية والدينية.

فإنصت الشاعر للأسئلة الوجودية ولتفاعلات زمنه هو عمل على اللغة. في هذا العمل، تتحدّد مسؤولية الشاعر. جسامتها مُتوقّفة على تصوّر اللغة، وتصور طاقتها على التسمية والتفكيك، وعلى بناء معنى ينفذ إلى ما لا يرى، وإلى ما لا ينفك يُنسى بسُملك الحجاب الإعلامي الذي يُطوّر آليات ترسيخه للبعد الاستهلاكي، وبسُملك الحجاب الإيديولوجي الذي يتقوى بإنتاجه للأوهام.

المعنى الشعري، من هذه الزاوية، نقديّ. يلتقي مع المعنى الفكري وينفصل عنه. انفصال يرجع، ممّا يرجع إليه، إلى نهوض الأول على المتخيّل وعلى إيقاع لا يتنازل عن حصّة الذات المؤمّنة للحضور الأقوى للذات الكاتبة؛ حضورها لا في البناء النصّي وحسب بل أيضاً في الرؤية إلى الأشياء. في هذه الرؤية، تضيق الحدود بين المتخيّل والإيقاع، الذي يكون تحقّقه النصّي بانياً للمعنى ولدمغة الذات في رؤيتها للأشياء. فمن مسؤوليات الشاعر بناء متخيّل يلتقي فيه الفكريّ بالجَماليّ، وهو ما لا يستقيم إلّا بالعمل على تغيير المتخيّل⁸. لا يبني الشاعر متخيلاً إلّا بتفكيك متخيّلاتٍ أخرى. تفكيك يستند إلى الإيقاع، بما هو رؤية ذاتية مخترقة للجَمعيّ؛ بتمثلاته وأوهامه وحبّه، ومفكّكة له في آن. بالإيقاع، تنفصل اللغة عن الجَمعيّ فيها وعمّا يتحوّل فيها باستمرار إلى بدهيات. إنّها المُقاومة الصامتة التي تنهض بها الممارسة النصيّة وفق طريقتها الخاصّة، القائمة أساساً على النّسب الشعريّ.

لتجليات المُقاومة الشعريّة، القائمة على المتخيّل ذي النّسب الفكريّ والجَماليّ، تعدّد مُتميّع على الحصر، لأنّها تنتسب في عمقها إلى اللانهائيّ. استناداً إلى ذلك، يُمكن مُصاحبة بعض هذه التجليات انطلاقاً من موضوعين اثنين، من غير نسيان

إنتاج الشعر للهوية مفتوحة يكون مرسوماً أيضاً في تصور الشاعر لممارسته النصية ولتحقق الذي به تتجسد. فكلُّ ممارسة نصية تُضمّر، انطلاقاً من تحقّقها، تصوّرها للشعر. وتاريخ الشعر العربي الحديث شاهدٌ على أنّ جانباً من قوّة هذا الشعر يعود لمحاوَرته لشعراء العالم، وسعيه إلى التفاعل مع تجاربهم، ممّا هيأ له أن يُوسّع مُنجزه النصّي وتصوره للممارسة الشعرية. وهذا ملمحٌ رئيسٌ في انفتاح الهوية، فترسيخ هذا الانفتاح لم يتحقّق، في ممارسة الشعراء النصية، انطلاقاً من الموضوع وحسب، بل أساساً من تصوّر الشعر وإنجازه. وهو ما تبدّى بوجه رئيس في مادّة البناء، أي في اللغة. العناصر التي بها تنبني اللغة هي ما يكشف عن تصوّر الهوية الذي تُضمّره هذه اللغة ويكشف عن تحقّق هذا التصوّر نصياً. إنّهُ أحدُ وجوه التشعّبات التي تنطوي عليها لغة الشعر ضمن وجوه عديدة تحتفظ في هذه اللغة على تعقّد علاقاتها مع القضايا الوجودية والفكرية.

بالنسبة إلى هذه الزاوية التي تحضر فيها الهوية لا بوصفها موضوعاً بل اشتغالاً على اللغة، يُمكن الإشارة إلى الحيويّة التي تُهيئها ضيافة لغة الشاعر للغات أخرى. فاللغة الشعرية لا تتخذ، على نحو ما أؤمنا إليه، الهوية موضوعاً لها وحسب، بل إنّ اشتغالها وعلاقتها بلغات أخرى يكشف في ذاته عن تصوّر للهوية وعن تحقّق لهذا التصوّر من داخل عناصر اللغة. كأنّ الشاعر يَظْلَعُ، بحُكم مادّة بنائه، بتأمين الحوار بين الثقافات والحضارات، كما هو شأن المفكّر، ويَظْلَعُ، فضلاً عن ذلك، بإرساء حوار اللغات وتفاعلها. ذلك أنّ علاقة اللغة بأخرها، أي باللغات الأخرى، هي أحد المواقع المُضمّرة لتصور الهوية.

لانغلاق الهوية استهياماته التي بها يتحصّن وبها يتخيّل الآخر. وهو موقع تفكيك شعري، اعتماداً على ما تُتيحه عناصر البناء الشعري. فمن مسؤوليات الشاعر، كما تَکْشَفُ من العديد من التجارب، تفكيك هذه الاستهيامات، لا بالتوجّه إليها على نحو مباشر، بل ببناء مُتخيّل يغتذي من الاختلاف ويُرسيه باعتباره أساس كلّ هوية، وبناء لغة تستضيف الغريب، وتحيا بالتفاعل معه.

بناء العمل الشعري لرؤية منفتحة عن الهوية ومُجدّدة لتصورها لم يتحقّق بجعله منها موضوعاً مباشراً، لأنّ في ذلك استسهالاً لها. إنّهُ يبدأ بإنصابت الشاعر للعالم ولتقلّباته ولتعقّد العلاقات فيه، وفي ضوئها يتحوّل هذا الإنصابت إلى عمل على اللغة وفق العناصر المؤمّنة للنسب الشعري. فالتفكير، في الهوية لا يستقيم دون وعي كوني لا تتسع له الحدود الدينية والإثنية والعرقية. إنّهُ يتطلب سياجاً كونياً، قائماً على التفاعل وفق قيم لم تُعدّ تسمح بالضيق والانغلاق، بل إنّها تتأسّس على نقضهما. بتوجيه من هذا السياج الكوني واستناداً إلى قضاياها، يتمّ العمل شعرياً على اللغة⁹. ذلك أنّ المعنى الشعري يَنبني، في تجارب تنهض على هذا الوعي، مُحاوراً العالم ومواجهاً المعنى الإعلامي والسياسي والديني. مُحاوراً تستند إلى الحس النقدي، الذي يُؤمّنه الشعر في نفاذه بقوة الخيال إلى البعيد وإلى ما لا يرى. ليس من مسؤوليات الشاعر تصوير مشاهد العنف المُخرق للعالم ولا رصد الوجه السطحي الذي تُكرّسه التقنية، بما هي نمط وجود، بل تقوم مسؤوليته أساساً على العمل باللغة على لغة العنف، العمل باللغة على لغة التقنية¹⁰، وخلق مُتخيّل مفتوح عن هوية مفتوحة. بهذا العمل، ينفصل الشاعر عن الخطاب الإعلامي والسياسي.

لما كان التفاعل، الذي تُولدُه الكتابة المُضَيِّفة للغريب، يتجاوز التركيب إلى الحمولة الثقافية، فإنَّ الهوية، التي يُرسِّمها اشتغال لغة الشعر، تجعله في صدارة الخطابات المُتصدِّية، بطريقته الخاصة، للانغلاق ولكلِّ صيغ رَفَض الآخر. إنَّ التفكيك الشعري، وفق هذه المسؤولية الشاقَّة، يَنفصلُ تماماً عن الرِّصد الآني للأحداث، وعن ترديد الشعارات، وعن كلِّ نزوع إلى إرضاء الصوت العام أو الاستجابة لتوجيه صوت الإعلام. التفكيك الشعري عملٌ على اللغة باللغة.

4. الشعر والبدهي

لا تنحصر مسؤولية الشاعر تجاه اللغة في تأمين حيويَّتها عبر الرِّهان على ضيافتها للغريب وعلى تخلُّق معناها من التفاعل مع لغاتٍ أخرى، إنَّها تتعدَّى ذلك إلى تحصين اللغة من كلِّ مظاهر الجمود والتصلُّب. ذلك أنَّ كلَّ تصلُّب يَمَسُّ اللغة، يمتدُّ إلى المعنى ويوقِفُ الفكر والخيال ويحجُبُ الأشياء. آلة التصلُّب جارفة، لأنَّها لا تكفُّ عن الاشتغال، مُحَصِّنَةٌ في ذلك بسُلطة التقليد والإعلام والسياسة والتداول والعادة. من هنا تبدو جسامة المهمة التي يضطلعُ بها الشعر. فمن مسؤوليات الشاعر، في حراسته لِلغة من كلِّ أشكال الموت، تجديد اللغة بجعلها دوماً مُتصدِّية لما يُسهمُ في تصلُّبها. تصدِّ ينتصر، انطلاقاً من العمل على اللغة، للعمق الذي أصبح يتلاشى بتنامي الحُجب وتعدُّد وجوهها. ذلك أنَّ هذا العمل غير مُنفصل البتَّة عن الانتصار للخيال والفكر.

لموت اللغة، في الحياة الحديثة، تجلياتٌ بلا حدٍّ من أبرز هذه التجليات جمود التركيب بالاستكانة فيه إلى صيغ مسكوكة. صيغ تحدُّ من الاحتمال اللانهائي الذي تفتحه العلاقة بين الكلمات. تضيقُّ هذا الاحتمال يَمَسُّ العلاقة بين الكلمات، ويترتَّب

ضيافة الشاعر للغاتٍ أخرى مسؤولية من مسؤولياته، بما يُتيح لِلغة أن تتسع للغريب وتنبني به، وأن تتجدد انطلاقاً من المحاورَة التي تُحقِّقها هذه الضيافة لِلغة. الضيافة تتيح للتركيب أن يتخلَّق من داخل علاقة، فتكون اللغة، بما يتحصَّل في تركيبها، شكلاً من أشكال التفاعل والتخلُّق من الاختلاف، على النحو الذي يُؤمِّن لِلغة نَسبها إلى مُستقبل مفتوح دوماً على التجدد. الضيافة، بما هي لقاء وتفاعل، مُجدِّدة للهوية، سواء من حيث الحمولة الفكرية التي يُنتجها التركيب المُتحصِّل من هذا اللقاء، أو من حيث احتمالات الصوغ التي تنفتح لهذا التركيب انطلاقاً ممَّا يُتيح له هذا اللقاء. فالهوية، في الممارسة النصية للشعراء الذين راهنوا على هذه الضيافة، تتحدَّد بوصفها علاقةً وتفاعلاً ومحاورَة. وهو ما يتحقَّق أساساً في اشتغال اللغة وتركيبها.

الكتابة بلغة مُتفاعلة مع لغاتٍ أخرى، لغة تُبني بالغريب فيها وبالتعالق معه، هي ترسيخٌ للهوية - علاقة، لا عبر التصريح، الذي يتحوَّل داخل الممارسة إلى تعويضٍ عمَّا لم يتحقَّق إنجازاً، بل عبر اشتغال اللغة وانطلاقاً من تركيبها. إنه تركيبٌ قادم، في هذه الحال، من علاقة لا تقبل بالآخر وحسب، بل تعتبره أساساً حيويَّتها. كأنَّ ما يُشددُّ عليه المُفكر من إرساء للهوية تغذي من الاختلاف هو عينه ما يقوم به الشاعر في عمله على اللغة، بجعلها مُتخلِّقة من لقاء يُؤمِّن ديناميَّتها ويربطُ حيويَّتها بالمُستقبل. اللغة، وفق هذا التخلُّق، قادرةٌ، إنجازاً وتحققاً، على تمديد قولية رامبو الشهيرة: "أنا آخر". تمديدٌ نسمعُ صدهاء في اشتغال اللغة وهي تجعل من آخرها رافداً لتحديث بنائها وتأمين تفاعلها مع الغريب في تركيبها. اللغة ذاتها آخر، لأنَّها تتخلَّق في علاقة بلغاتٍ أخرى، وتُنتج المعنى وفق هذه العلاقة وبها.

فالتعبير المسكوك، حسب بارت، "واقعة سياسية، إنّه الصورة الكبرى للإيديولوجية"¹². من هنا تتبدّى حيويّة التصدي لما يجمد في اللغة، وحيويّة نقض السُّلط التي تتحصّن في اللغة وبها.

حماية الشاعر للغة من المسكوك ليس، وفق هذا المنظور، مجرد مقاومة للتقليد وحسب، بل هو تصدّي أيضاً للبدهي الذي يأخذ صورة تركيب جامد. فهذه الصورة، التي يجسّدُها التركيب، تكون علامة على موت يمسّ علاقة الكلمات ببعضها. وما إن يتسرّب الموت إلى هذه العلاقة حتى يمتدّ إلى علاقة الكلمات بالأشياء. فيغدو المسكوك من التراكيب شكلاً من أشكال ترسيخ اليقينيّات. وبذلك، فتوجّه الشاعر إلى المسكوك، بغاية هدمه وتمكين اللغة من حيويّة مُتجدّدة، هو أساساً تجذير للسؤال وتحصين اشتغال اللغة بآليات نقدية. في هذا التوجّه، يتقاطّع الشاعر مع المفكر من غير أن يتماهى معه، لأنّ تفكيك الشعر لليقينيّات والبدهيات يتحدّد، أساساً، بما هو عمل على اللغة. لربّما يُعدّ هذا العمل مسؤوليّة الأدب بوجه عامّ، لكنّ للشعر فيه، بحكم وضع لغته، الحصة الأوفر.

إنّ مسؤوليّة تفكيك البدهي ترتكز، وفق توجّه هذ التفكيك إلى ما يموت في اللغة، على حيويّة الخيال الشعري. ليس الخيال الشعري تجريداً مُنفصلاً عن الحياة، بل هو من صُلُها. إنّه نفاذ إلى الأشياء بتحرّر تامّ من المُسبّقات، بغاية تحرير الأشياء من القبلّيات التي تسلّلت إلى أسمائها ومعناها. ذلك أنّ لغة التداؤل والمعنى المتولّد منها غالباً ما يتحوّلان إلى حجاب على الأشياء. فتصبح الأسماء والكلمات هُما ما يُبعد عن الأشياء وما يُرسّخ نسيانها، لأنّهما يكفّان عن تجديد العلاقة مع المُسمّيات. بجمود هذه العلاقة، يفقد فعل التسمية خطورتها وقوّته

عليه جمود العلاقة بين الكلمات والأشياء. فكلّ شلّ يمسّ علاقة الكلمات إلّا ويمتدّ إلى علاقة الكلمات بالأشياء. من هنا تتبدّى قيمة إحدى المسؤوليات التي يتكفّل بها الشعر، ويتكشف رهاؤها البعيد.

عندما تتجمّد اللغة، تكفّ عن أن تُنتج السؤال وتفقّد طاقتها على المسألة التي بها تتجدّد. جمودها في تراكيب مشلولة، بضغط التكرار وسطوته، يجعل منها بنية ثابتة، ويجعلها، أخطر من ذلك، في خدمة البدهي، إذ يُحوّلها إلى آلة لتسويق المُسلّمات. التكرار، الذي ينطوي على هذه الخطورة، مؤسّساتي. فالمؤسّسات الرسمية للغة هي، كما يقول بارت، آلات تكرار تُعيد البنية ذاتها والمعنى ذاته، وفي الغالب الكلمات ذاتها¹¹. ذلك ما تسهر عليه مؤسّسة الإعلام، انطلاقاً من احتكامها الجوهري إلى الوظيفة التي تجعل اللغة في خدمة النزوع الاستهلاكي، يضاف إلى هذه الوظيفة ما ترتّب على السطحية المتنامية التي تشهدّها اللغة في وسائل التواصل الحديثة، ضمن الاكتساح التقني الذي يُغذّي البعد الاستهلاكي. وهو كذلك ما تحميه المؤسّسة الحزبية في اطمئنانها لتراكيب لا تتبدّل، تراكيب مُقنّعة بألفاظ حديثة، يتمّ إدماجها في بنية الخطاب كي تُخفي تقليدية راسخة، تستند إلى خلفيّة إيديولوجيّة عمياء. وهو أيضاً ما تُكرسه المدرسة بآلية الرتابة والنمطيّة التي تكفّ فيها اللغة عن مُراقبة نفسها ومُراقبة علاقتها بالمعنى.

وبذلك، فالمقاومة، في تجارب محكومة بهذا الوعي الحيوي للغة، التي ينهض بها الشعر في تصديده لكلّ استسلام للتكرار، هي مقاومة للوجه الخفي للسلطة، التي لا تكفّ عن إبدال مواقع اشتغالها. إنّها مقاومة للآلة المنتجة للبدهي. فالتصدي للمسكوك والثابت، أي للموت الذي يسري في بنية اللغة ويمتدّ إلى المعنى، هو مقاومة للإيديولوجيّة في أكبر تجلياتها.

يَعْمَلُ هذا الفِعْلُ على رَفْعِ الحُجُبِ عن الأشياء. إِنَّهُ عَمَلٌ شاقٌّ. يَشْتَغِلُ ضِدَّ كُلِّ نسيانٍ للوجود. فيه يَكُونُ الشعرُ في قلب الحياة، ساهراً على نَقْضِ ما يُبْعَدُ عنها، خلافاً لكلِّ ادِّعاءٍ فَجٍّ يَفْصِلُ العملَ على اللغة عن الارتباط القوي بالحياة. فالعملُ على اللغة، بما يتطلبه من معرفة وخيال ومن تَأْنٍ كتابيٍّ ومن صَبْرٍ كبير، ليس عملاً تجريدياً. إِنَّهُ مُقاوِمَةٌ من أجل الحياة. مُقاوِمَةٌ للحُجُبِ التي تتَخَفَّى تحت تسمياتٍ إعلامية وسياسية لا تكفُّ عن تطوير وسائلها من أجل احتكار التسميات وإفراغها من المجهول.

بِفِعْلِ التسمية الشعرية، إِذَا، يَتَكشَّفُ أَحَدُ رهانات المعنى الشعري والمعرفة التي يتطلبها بناءُ هذا المعنى. فالأشياء لا تَقْدِمُ نَفْسَهَا تلقائياً، بل تَتَطَلَّبُ تسميتها عملاً نقدياً كما يقول إيف بونفوا¹³. تَتَطَلَّبُ مَحَوّاً لِمَا تراكم فوق الأشياء، وخلخلة لتسمياتٍ شَلَّتِ المعنى، ونفاذاً إلى أسرار الحياة التي يَعْمَلُ الصوت العام على طَمْسِها. يتَحَقَّقُ هذا العمل النقدي، بما هو اشتغالٌ على اللغة، انطلاقاً من بناءٍ تراكميٍّ قادمة من مجهول الذات وإيقاعها، ومن المعرفة التي يتطلبها الشعر.

التسمية الشعرية، وَفْق هذا التصوّر، مُقاوِمَةٌ لِمَا يَحْجُبُ الوجودَ ولِمَا يُراكم نسيانه. إِنَّها عَمَلٌ مُضادٌّ في حَرْبِ المعنى المتنامية في الزمن الحديث. عملٌ يَتَّخِذُ من اللغة موقعاً لاستجلاء المحجوب. التسمية الشعرية استعدادٌ دائمة للأشياء بالكشف عن الحُجُبِ التي تنمى، مُبْعِدَةً الإنسانَ عن نفسه، وعن الأشياء.

بالجملة، إِنَّ مسؤولية الشاعر، التي تَمَّتِ إضاءَةُ بعض جوانبها انطلاقاً من موضوعي الهوية والبدهي، غيرُ قابلةٍ للاستنفاد أو الحصر. وَجُوهُها تَتَعَدَّدُ بتعددِ المواقع المُعْتَمَدَةِ في التأويل ويتمنّع الشعر ذاته عن

التفكيكية، بل تكفُّ اللغة عن أن تُسمِّي، أي تكفُّ عن الاضطلاع بإحدى أنبل مسؤولياتها وأخطرها.

من مسؤولية الشاعر، إِذَا، أَنْ يُعيدَ الحياةَ لعلاقة الاسم بالمسمَّى، أي أَنْ يُسمِّي الشيءَ بفضلِهِ دوماً عن القبلية والمُسَبَّقات التي تحجُّبُهُ. وكما لا تكفُّ أَلَةُ الحُجُبِ عن الاشتغال، بتوجيهٍ ورعايةٍ من مُؤسَّساتِ اللغة، فَإِنَّ التسمية، التي يَهْنُضُ بها الشعرُ، عملٌ لا ينتهي. دَمَغَةُ فِعْلِ التسمية، في الأعمال الشعرية الأساسية، علامةٌ راسخة على المعرفة التي يُنتجها الشعر. علامة تَظَلُّ شاهدةً في أزمنة أخرى على آليَةِ التصدي لخطورة المسكوك، ولخطورة إفراغ المسافة بين الاسم والمسمَّى من الخيال. تصدِّ يرومُ صَوْنَ مجهولٍ لا يتحقَّقُ الشعرُ إلا بتأمين حياته.

حيوية الخيال هي ما يُمَكِّنُ العلاقة بين الكلمات مِنْ أَنْ تَظَلَّ مفتوحةً على لانهائية احتماليها. فتجديدُ العلاقة بين الكلمات رهينٌ بالخيال، الذي به يتقوَّضُ كلُّ تصلِّبٍ يُريدُ لصيغة تركيبٍ ما أَنْ تتحوَّلَ إلى احتمالٍ أخير. والحال أَنَّ احتمالاتِ العلاقة بين الكلمات لا حدَّ لها. إِنَّ إحدى مسؤوليات الشاعر أَنْ يَظَلَّ ساهراً على صَوْنِ الاحتمال، بتمكين اللغة مِنْ رافِدِ الخيال المُؤمِّنِ لِمائها وَلِنَسَبِها إلى اللانهاية. كلِّما تصلَّبَ تركيبٌ ما، يَكُونُ الشعرُ مسؤولاً على تقويض ما تصلَّبَ فيه. ما يتصلَّبُ لا يَمَسُّ، وفق ما تبدى ممَّا تقدَّم، العلاقة بين الكلمات وحسب، بل علاقتها بالأشياء. تصلَّبُ التسمية، التي يُجسِّدُها التركيب المسكوك، هو أساساً تصلَّبٌ في المعنى يُتِيحُ لآلَةِ الحُجُبِ أَنْ تشتغل.

في ضَوْءِ هذا التصوّر، تَبْدَى حَيَوِيَّةُ فِعْلِ التسمية، بما هو تفكيكٌ لِمَا يَمَسُّ اللغة من جُمُودٍ ولِمَا يمتدُّ عبر هذا الجمود إلى المعنى، وإلى الفكر، وإلى الحياة ذاتها. في تَوَجُّهِ فِعْلِ التسمية إلى عُمقِ الأشياء وإلى الصميم فيها وإلى ما لا يتناهى من مُحتملها،

باللغة على اللغات التي لا تُخضع نفسها للمساءلة. لمزيد من التفاصيل، انظر: *Langage de la relation, Revue Mutations*, op. cit., p. 197 – 198 – 199. 200.⁵ يمكن أن نُشير، تمثيلاً لا حصراً، إلى كتابات أدونيس النظرية التي انشغلت بهذا الموضوع على نحو تحولٍ فيها إلى موقع لتفكيك التناول الإيديولوجي والسياسي للشعر. موقع انطوى على استشكل خصب وعلى إضاءات كاشفة للعديد من الأعطاب التي ترسّخت في موضوع العلاقة بين الشعري والسياسي. فمنذ كتابه *زمن الشعر*، الصادر عام 1972، لم يتوقف أدونيس عن التوغّل في الموضوع الذي عاد إليه بصورة لافتة في كتابه: *سياسة الشعر*، 1985، وموسيقى الحوت الأزرق، 2002.

⁶. Martin Heidegger, *Approche de holderlin*, Traduit de l'allemand par Henry Corbin, Michel Deguy, François Fédier et Jean Launay, Gallimard, 1973, p. 44.

⁷. إنها الرؤية التي مدّدها هيدغورفك تصوّره لعلاقة اللغة بالوجود. أنظر المرجع السابق، ص. 45 وما بعدها.

⁸. *Langage de la relation, Revue Mutation*, op. cit., p. 200.

⁹. تحدّث إدوارد غليسان، في هذا الصدد، على ما أسماه بشعرية عالمية، رأى فيها السبيل الأنجع للتصدّي للعولمة. فالابتدال وطئس الاختلافات اللذان رسّختهما العولمة لا يُمكن أن يقاوماً بالانغلاق في هوية مُنعزلة، بل بشعرية عالمية تنطلق من تحولات العالم وتقلّباته، وفي ضوءها يُرسي الشاعر، انطلاقاً من عمله على اللغة، وعياً بتداخل المرجعيّات والعلاقات التي أصبحت تحكم الجميع. المرجع السابق، ص. 199 – 200.

¹⁰. المرجع السابق، ص. 200.

11. Roland Barthes, *Le plaisir du texte*, coll. Points, ed. Seuil, 1973, p. 66.

¹². المرجع السابق، الصفحة ذاتها.

¹³. في عمق المُباشر، حوار مع إيف بونفوا، مجلة البيت، العدد 23 – 24، ربيع 2014، ص. 16.

التحديد، على نحو ما يشهد عليه اختلاف التجارب الشعرية؛ إنجازاً وتصوّراً. غير أنّ المنطلق التأويلي، الذي يتخذ من العمل على اللغة في الشعر موقعاً رئيساً، يحتفظ بحيويّته وبطاقته على التوغّل في الموضوع، انطلاقاً ممّا ترسّخ معرفياً عن لغة الشعر، بحمولتها الفكرية ووشائجها القويّة بالوجود والحياة والذات والآخر. وشائج يُخطئها الصوت العام وتتملّص من الرؤية الإعلامية والسياسية.

الإحالات والهوامش:

¹. *Langage de la relation*, Entrtien avec Edouard Glissant, *Revue Mutations*, Editions Autrement, N. 203 Avril 2001, p. 197.

². غيرالد تشينغ، مدخل إلى قراءة آثار ريلكه الشعرية، ضمن: راينر ماريا ريلكه، كتاب الساعات وقصائد أخرى، (الآثار الشعرية، الجزء الأول)، ترجمة كاظم جهاد، كلمة ومنشورات الجمل، ط1، 2009، ص. 47.

³. المرجع السابق، الصفحة ذاتها.

⁴. يُمكن التمييز في تناؤل موضوع علاقة الشعري بالسياسي بين رؤيتين؛ الأولى قائمة على التماهي بمختلف أعطابه، والثانية تُشدّد على هذه العلاقة ولكن بالتمييز بين السياسة la politique وبين السياسي le politique أو تُشدّد عليها بتغيير جذريّ لمفهوم السياسي عندما تعبّر به لتأويل الشعر. وهو ما يدعو إلى التساؤل عن جدوى الاحتفاظ بالمصطلح نفسه مادام يخضع لقلب جذري في هذا العبور. ذلك ما يكشف عنه إدوارد غليسان في حوار خصّ مُعظمه لهذه العلاقة، إذ لم يكف على امتداد الحوار عن التنصيص على العلاقة القويّة التي تربط الشعر بالسياسي، ولكن بمعنى خاص لمصطلح السياسي. فهو يرى أنّ هذه العلاقة لاتقوم، كما كان الحال في فرنسا والغرب بداية القرن العشرين، على مفهوم الالتزام والبرامج السياسية ودعم هذا الحزب أوذاك، بل على النفاذ إلى ما لا يرى في الواقع وتغيير المُتخيّل والعمل